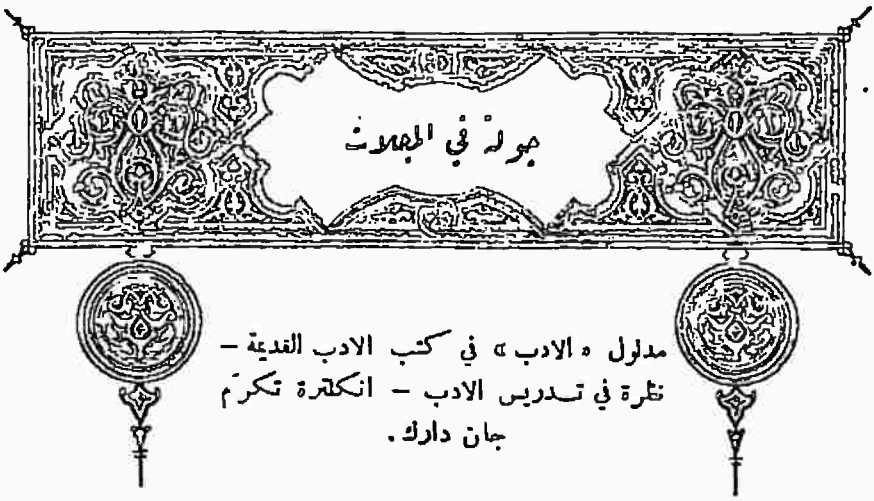

مدلول « الادب » في كتب الادب القديمة — نظرة في تدريس الادب — انكلترة تكرّم جان دارك .

مدلول « الادب » في كتب الادب القديمة

كتب الاستاذ مصطفى صادق الرافعي مقدّمة لشرح « ادب الكاتب » للامام ابي منصور الجواليقي ، خصّ قسماً منها بموقف بعض ادباء العصر من تلك الكتب القديمة ، موقف الإعراض والترفّع ، ان لم نقل الكره والاشمئزاز . وتخطى الى ذكر السبب في هذا الموقف ، فاورد نظرات جديرة بالانتباه قادته الى تحديد « الادب » وذكر مدلوله في كتبه القديمة كآثار ابن قتيبة ، والمبرّد ، والقالي ، ومن اليهم . قال (المقتطف : تموز ١٩٣١ ، ص ١٣٠) :

السبب ان اولئك الادباء كلهم ثم من يتشيّع لهم او يأخذ برأيهم ليس منهم واحد ترى في اساسه الادبي تلك الاصول العربية المحضة القائمة على دراسة اللغة وجمعها وتصنيفها وبيان عللها وتصاريفها ومطارح اللسان فيها . والمتأدية بذلك الى تمكين الاديب الناشيء من اسرار هذه اللغة وتطويعها له فيكون قيماً بها وتكون هي مستجيبة لقلمه جارية في طبيعته مسدّدة في تصرّفه . حتى اذا نشأ بها واستحكم فيها احسن العمل لها وزاد في مادتها واخذ لها من غيرها وكان خليقاً ان يعدّ فيها ويحسن الملاءمة بينها وبين الآداب الاخرى ويجعل ذلك نسجاً واحداً وبياناً بعضه من بعضه فينمو الادب العربي في صنيعه كما تنمو الشجرة الحية تأخذ من كل ما حولها لعنصرها وطبيعتها وليس الا عنصرها وطبيعتها حسب .

ان ادب الكاتب وشرحه هذا للامام الجواليقي وما صُنف من بابهما على طريقة الجمع من اللغة والخبر وشعر الشواهد والاستقصاء في ذلك والتبسط في

الوجوه والعلل النحوية والصرفية والامعان في التحقيق . كل ذلك عملٌ ينبغي ان يعرف على حقه في زمننا هذا ، فهو ليس ادباً كما يفهم من المعنى الفلسفي لهذه الكلمة بل هو ابعد الاشياء عن هذا المعنى فانك لا تجد في كتاب من هذه الكتب الا التأليف الذي بين يديك ، اما المؤلف فلا تجده ولا تعرفه منها الا كالكلمة المحبوسة في قاعدة ... وكأنه لم تكن فيه روح انسان بل روح مادة مصمتة ، وكأنه لم ينشأ ليعمل في عصره بل ليعمل عصره فيه ، وكأن ليس في الكتاب جهةٌ انسانيةٌ متعينةٌ ؛ فثمّ تأليف ولكن اين المؤلف ، وهذا كتاب ابن قتيبة ولكن اين ابن قتيبة فيه ؟

وما اخطأ المتقدمون في تسميتهم هذه الكتب أدباً فذلك هو رسمُ الادب في عصرهم ؛ غير ان هذا الرسم قد انتقل في عصرنا فاننا نحن المخطئون اليوم في هذه التسمية كما لو ذهبنا نسمي الجمل في البادية الاكسبريس والهودج عربة بولمان ...

ومن هذا الخطأ في التسمية ظهر الادب العربي لقصار النظر كانه تكرار عصر واحد على امتداد الزمن ...

الحقيقة التي يعينها الوضع الصحيح ان تلك المؤلفات انما وُضعت لتكون ادباً لا من معنى ادب الفكر وفنه وجماله وفلسفته بل من معنى ادب النفس وتثقيفها وتربيتها واقامتها . فهي كتب تربية لقوية قائمة على اصول محكمة في هذا الباب حتى ما يقرؤها أعجمي الا خرج منها عربيًّا او في هوى العربية والميل اليها . ومن اجل ذلك بُنيت على اوضاع تجعل القارئ المتبصّر كأنما يصاحب من الكتاب أعرابيًّا فصيحاً يسأله فيجيبه ويستشهد به فيرشده ويخرّجه الكتاب تصفُّحاً وقراءةً كما تخرجه البادية سماعاً وتلقيناً ، والقارئ في كل ذلك مستدرج الى التعرّب في مَدرجةٍ مدرجةٍ من هوى النفس ومحبتها فتصنع به تلك الفصول فيما دُبرت له مثلما تصنع كتب التربية في تكوين الخلق بالاساليب التي أديرت عليها والشواهد التي وضعت لها والمعالم النفسية التي فصّلتْ فيها .

ومن ثم جاءت هذه الكتب العربية كلها على نسق واحد لا يختلف في الجملة فهي اخبار واشعار ولغة وعربية وجمع وتحقيق وتمحيص ؛ وانما تتفاوت

بالزيادة والنقص والاختصار والتبسط والتخفيف والتثقيل ونحو ذلك مما هو في الموضوع لا في الوضع ، حتى يخيل اليك ان هذه كتب جغرافية للغة والفاظها واخبارها اذ كانت مثل كتب الجغرافية متطابقة كلها على وصف طبيعة ثابتة لا تتغير معالمها ولا يخلق غيرها الا الخالق سبحانه وتعالى.

اما الفائدة من تلك الكتب فهي:

ومما تردُّه على قارئها تلك الكتب في تربيته العربية انها تمكن فيه للصبر والمطاناة والتحقيق والتروُّك في البحث والتدقيق في التصفُّح وهي الصفات التي فقدها ادباء هذا الزمن فاصبحوا لا يتثبتون ولا يحققون وطال عليهم ان ينظروا في العربية وثقل عليهم ان يستبطنوا كتبها . ولو قد تربوا في الاسفار وبذلك الاسلوب العربي لتمت الملاءمة بين اللغة في قوتها وجزالتها وبين ما عسى ان ينكره منها ذوقهم في ضعفه وعاميته وكانوا احقَّ بها وأهلها .

وذلك بعينه هو السر في ان من لا يقرؤن تلك الكتب اول نشأتهم لا تراهم يكتبون الا باسلوب منحط ولا يجيئون الا بكلام سقيم غثّ ولا يرون في الادب العربي الا آراء ملتوية ، ثم هم لا يستطيعون ان يقيموا على درس كتاب عربي ، فيُساهلون انفسهم ويحكمون على اللغة والادب بما يشعرون به في حالتهم تلك ويتورطون في اقوال مضحكة وينسون انه لا يجوز القطع على الشيء من ناحية الشعور ما دام الشعور يختلف في الناس باختلاف اسبابه وعوارضه ولا من ناحية يجوز ان يكون الخطأ فيها ، وهم ابداً في احدى الناحيتين او كلتيهما.

نظرة في تدريس الادب

وقفنا في مجلة «الاخاء» (ايار ١٩٣١ ص ١٧٠) على مقالة للعزيزي شديدة اللهجة في انتقاد اسلوب «التربية والتعليم في شرق الاردن». وقد رأينا فيها نظرات صائبة في ما خصَّ تدريس الادب العربي تنطبق لا على شرق الاردن فحسب ، بل على كثير من البلاد التي لا يزال تلامذتها يعانون حفظ وتفسير ذاك الشعر الغرامي الفاسد المُفسد. قال الكاتب:

الآداب العربية: كيف يدرسونها ؟!!

ما ذكرت هذا الدرس ولا ذكرت اسلوب تدريسه الا ضحكت حزناً

« وشر المصائب ما يضحك ! » المقرر لدرس تاريخ الآداب العربيـة : كتاب تأليف الاستاذ فلان الخ ! ! ! يجب حفظ كلمات المؤلف نفسهـا ، او كلمات المعلم بعينها ، الحق ان هذا شيء مدهش ! الاغرب ان الاستاذ ، لكي يوهم التلامذة انه قدير ، يقول لهم انه يحفظ الف بيت من الشعر (نفيس جداً) ما هي ؟ غزليات عمر بن ابي ربيعة ، تلك الغزليات السافـلة التي يأخذ الاساتذة الافاضل تلامذتهم بحفظها ، وبتفسيرها .

ثم يذكر فحش امرئ القيس في معلّقته ، ويعود الى ابن ابي ربيعة :

اما غزليات ابن ابي ربيعة فلا ارى ابرد منها ؛ والحقّ اني المن الساعة التي حببت اليّ حفظ بعضها ، لان فيها من نزوات الشيطان ما يكفي لافساد اجيال من الشبيبة . ولقد رأيت بأم عيني شاباً شملة ذكاء ونشاط جنت عليه اشعار ابن ابي ربيعة فردته خائر القوى ، فاتر العزيمة ، قلق المقلية ، مضطرب الشخصية ، وكثيراً ما اجهدت نفسي لاصرفه عن الانتحار !

فأية فائدة اذاً من تلك المدارس ؟ ومن ذاك الشعر الغرامي ؟

اليست أعظم فائدة نجنيها اننا نحوّل هذه المدارس محلات يتلقّن مرتادوها أصول الغرام الفاحش ! ! ؟

نحن في المدارس نريد ان نجعل التلامذة بعيدين عن كل مـا يثير فيهم الخيالات الدنسة ! . التربية البيتية معدومة في بلادنا . فلا اقل من ان تكون المدرسة والدروس ملجأ للاخلاق . ان تربيتنا البيتية ، حالتنا الاجتماعية ، جهلنا المطبق ، لا تتحمل الطفرات الجنونية ! !

فما لنا ولجلى ومرضع امرئ القيس ! ما لنا ولهنيدة ابن ابي ربيعة وسلمياه ونعماه و و و . . .

ما لنا ولعبلة عنترة ، وعشيقة طرفة ، وعزة كثيّر ، وبثينة جميل ، وليلى المجنون ؟ ؟ ؟

فهل يصادف صوت النرجسي اذناً صاغية ؟

انكلترة تكرم جانه دارك

افاضت صحف العالم عامةً وصحف فرنسة خاصةً بذكر الاعياد الاحتفالية التي أُقيمت في روان تذكاراً لمرور المئة الخامسة على حريق القديسة جان دارك، الذي جرى في ٣٠ ايار ١٤٣١ وفي ٣٠ ايار ١٩٣١، كانت المدينة تعجّ بالوفود المتألبة لتكريم ذكرى القديسة. وقد لفت الانظار خاصةً الوفود البريطانية التي وصف مظاهرها ريمون اسكوليه في مجلة العالمين (*Revue des Deux Mondes*, 1 *juillet* 1931, *p.* 206...) فقال:

منذ سنة ١٩٠٢، قام الشريف الانكليزي ادوارد كلارك، احد وجهاء مدينة هستنغس، فاشترك بالحفلة التكفيرية، وصاح ضارباً صدره: «اجل! لقد ارتكبنا، نحن الانكليز، خطأً جسيماً بحرقنا جان دارك» وكم من الانكليز قطعوا المانش، منذئذٍ، فاتوا روان ليقوموا بواجب التكفير!... وفي هذا النهار، ترى فرقة من فتيات انكلترة حاملات علماً تظهر عليه هذه الكلمات المؤثرة:

Homage to Saint Joan of Arc,

from England

«اكرام للقديسة جان دارك، من انكلترة!»

ومن الحق ان هذا النهار يختصّ بانكلترة اختصاصه بجان... وها ان سفير بريطانية العظمى في فرنسة، اللورد تيرل، لا يخفي تأثره. اما اساقفة بريطانية فكلهم حاضرون تقريباً.. وها ان الكردينال بورن، رئيس اساقفة وستمنستر، وموفد الحبر الاعظم الخاصّ يصل وسط عاصفة من الهتاف. فيلفت وصوله الانظار حتى ان الناس يكادون ينسون جميع مظاهر الفخامة المتجلّية في تلك الحفلة، فلا يرون الا خلف رئيس اساقفة وستمنستر الذي ارسل جان دارك الى الحريق! وهو اجدر من يقوم بالكفارة!

هوذا الظهر، الساعة التي عُذّبت فيها جان دارك. اخذت الجيوش تسير بانتظام، حتى اذا وصل القوّاد امام محلّ العذاب، حيث ارتفعت كومة الحطب، حنوا سيوفهم تحيّة. ثم تقدّم وزير العدلية ممثلاً فرنسة، ومدير روان، وعن جانبيهما الانكليزيان العظيمان الكردينال بورن، واللورد تيرل... وفي الساعة نفسها قرعت اجراس كاتدرائية روان، فاجابتها اجراس فرنسة جمعاء... ف. ا. ب.